

شعرية رحلة الظّعائن في الشعر الجاهلي وتمثّلات القيم في بنية الصّورة الشعرية

The poetry of the Za‘ā in (women’s caravan) journey in pre-Islamic poetry and the representations of values in the structure of the poetic image

*- محمد غسان صفصوف

*- جامعة الجنان طرابلس- لبنان

mohamadsafsouf@outlook.com

تاريخ القبول: 2026/05/02

تاريخ الإرسال: 2026/01/05

الملخص:

يتناول هذا البحث شعرية رحلة الظّعائن في الشعر الجاهلي بوصفها بنية فنية وثقافية تتجاوز بعدها الواقعي المرتبط بالتنقل طلباً للماء والكلأ، لتغدو عنصراً بنائياً فاعلاً في تشكيل القصيدة إلى جانب المقدمة الطللية. وينطلق البحث من فرضية مؤداها أن رحلة الظّعائن ليست مجرد مشهد وصفي عابر، بل نسق رمزي تتقاطع فيه الأبعاد السردية والنفسية والاجتماعية، بما يعكس منظومة القيم السائدة في المجتمع البدوي. الكلمات المفتاحية: رحلة ، الصورة الشعرية، القيم البدوية، النسق الثقافي.

Abstract:

This study explores the poetics of the Za‘ā in (women’s caravan) journey in pre-Islamic poetry as both an artistic and cultural structure that transcends its practical function of seasonal migration. It argues that the journey constitutes a central poetic motif alongside the ṭalil prelude, operating as a symbolic and narrative space where psychological, social, and cultural dimensions intersect .

Keywords: Journey, poetic imagery, Bedouin values, cultural framework.

مدخل:

يكشف البحث عن حضور منظومة القيم البدوية في التشكيل الشعري، حيث تتجلى القيم الإيجابية كالكرم والفروسية والجرأة بوصفها مرتكزات جمالية وأخلاقية، في حين تعكس صور الثأر والتمايز الاجتماعي توترات البنية الثقافية للمجتمع الجاهلي.

يُعدّ الشعر الجاهلي مرآة صادقة لحياة العربي في بيئته الصحراوية، إذ تنمّاهي التجربة الفردية مع الواقع الاجتماعي، وانعكست من خلالها منظومة القيم والعادات التي شكّلت ملامح المجتمع البدوي قبل الإسلام، ولم يكن الارتحال في تلك البيئة مجرد ضرورة حياتية تفرضها طبيعة الصحراء، بل تحوّل إلى عنصر فني بارز في بنية القصيدة، لا سيما في مشهد رحلة الضعائن بما يحمله من أبعاد وجدانية وجمالية وثقافية.

تؤدّي حياة الشاعر دورًا محوريًا في فهم طبيعة هذه الصور الشعرية. فقد عاش الشعراء الجاهليون في بيئة صحراوية قاسية فرضت عليهم حياة الرحلات الدائمة، والصراعات بين القبائل، والمغامرات الفردية التي انعكست على أشعارهم. فمثلاً، عنتر بن شداد¹ عكست أشعاره صراعاته في الدفاع عن قبيلته والسعي وراء المجد الشخصي، وتجربته في مواجهة التمييز بسبب لون بشرته، ما انعكس في تصويره للرحلات والهواجس العاطفية في رحلة الضعائن. أما امرؤ القيس²، فقد جسّد في أشعاره اهتمامه بالراحة والأمان للمرأة أثناء السفر على الهودج، وربط بين تجواله في الصحراء والبحث عن المجد والغزل، ما أضفى على رحلة الضعائن بعداً نفسيًا واجتماعيًا. كما أسهم الأعشى³ في تصوير الرحلة بأسلوبه الفني، مستندًا إلى خبرته في المديح الاجتماعي وملاحظة تفاصيل حياة القبائل، ليعكس القيم البدوية من الكرم والعفة والشجاعة.

وتتجلى أهمية دراسة رحلة الضعائن في كونها نقطة التقاء بين الشعرية والنسق الثقافي، فهي مشهد تصويري حافل بالحركة والوصف، وفي الوقت نفسه رمز اجتماعي يعكس قيم الشرف والستر والحنين والفراق. ومن هنا يسعى البحث إلى الكشف عن شعرية هذا المشهد في الشعر الجاهلي، وبيان كيفية تجلّي القيم البدوية في بنية الصورة الشعرية، انطلاقًا من قراءة تحليلية تستنطق النصوص وتربطها بسياقها الثقافي والحضاري.

1/ رحلة الضعائن في الشعر الجاهلي وأثر البيئة الصحراوية في تشكيل الصورة الشعرية: لا شكّ في أنّ للبيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة بالشاعر أثرًا لا يُنكر في صور الشاعر، لأنّ «الأدب والفنون ملاكها الخيال، والخيال غذاؤه الحسن، والحسن موضوعه البيئة، والبيئة

عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر، فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة، ويُؤلف بين روحه وروح البيئة، فاتته الصبغة المحلية، وهي شرط جوهري لصدق الأسلوب، وسلامة الصورة. «⁽⁴⁾ كانت عادات البداوة وتقاليدها، وقيمها من أبرز الروافد التي استقى منها الشعراء مادة صورهم. سنتناول في هذا البحث أبرز هذه العادات والتقاليد، وهي تبرز من خلال رحلة الطعائن في الصحراء.

لقد فرضت البيئة الصحراوية المُجربة بمناخها الجاف القاسي، ومواردها الاقتصادية الشحيحة على البدو الجاهليين الارتحال الدائم الاضطراري، طلباً للكلأ، والماء، والخصب، وكثيراً ما كانت تنشب مشاجرات، وحروب، وصراعات طويلة الأمد؛ بسبب قساوة هذه الحياة، وقد صوّر الشعراء الجاهليون سلوك الارتحال الملازم لحياة البدو الجاهليين، الذي كان جزءاً من التركيب الاجتماعي، والثقافي، والنفسي، والذهني لهم، وقد كان له «تأثير على إنسان تلك المنطقة، وتبدّى هذا التأثير من خلال اللغة في القصيدة... فالرحلة ليست تجربة شاقّة يخوضها شاعر ليبلغ غاية معلنة، وإنما هي طقس شعري يؤدي بالتواطؤ، والمبدع، والمتلقي؛ ليصبح الشعر شعراً.»⁽⁵⁾

وتتشابه الصورة الكلية التي يرسمها الشعراء الجاهليون للرحلة في ملامحها العامة مع تباينات جزئية تبعاً لغرض القصيدة الأساسي، وليست الرحلة مجرد انتقال من أرض قاحلة مجربة إلى أرض خصبة بحثاً عن الماء والكلأ، فحسب، إنما هي أيضاً خطاب شعري؛ لأنّ الشاعر الجاهلي «يعنى بتقديمها بلغة أدبية عميقة يمتزج فيها السرد بالوصف، وترتبط فيها أجزاء الخطاب كعممار نموذجي في وحدة قصصية واحدة مكوّنة نصّ الرحلة.»⁽⁶⁾ وتعدّ الرحلة أيضاً قصّة؛ لأنّها تشتمل على عناصر الحدث، والشخصيات، والزمان، والمكان، والسرد، والوصف، والحوار، والعقدة، والحلّ، وبالطبع يبقى للشعر بنيته وطبيعته الخاصة، ولاشكّ في أنّ الرحلة قد وسّعت من مدارك الشعراء الجاهليين، وقدرتهم على التخيل. واتخذت الرحلة شكلين: الأول، رحلة الشاعر على ناقته، والآخر رحلة الطعائن على الهودج. إنّ رحلة الطعائن في الحقيقة هي نتاج التفاعل والصراع بين البدوي الجاهلي وبنيته البدوية الصحراوية القاسية من جهة وبينه، وبين البدو الآخرين من جهة أخرى، وهي تعبّر عن طبيعة النظام الاجتماعي البدوي القائم على الرحلة، و تحمل في طياتها أبعاداً نفسية وعاطفية، والملاحظ في كلّ القصائد التي وصف فيها الشعراء الجاهليون رحلة الطعائن أنّ أهل الحبيبة وقبيلتها دائماً هم الراحلون، وليس الشاعر أو قبيلته.

هذا، وقد صوّر الشعراء الجاهليون رحلة الطعائن على الهودج بأدق تفصيلاتها وجزئياتها حتى صارت غرضاً شعرياً أساسياً في بنية القصيدة الجاهلية، لا يقل أهمية عن المقدمة الطللية، وغدت لوحة تصويرية شعرية إبداعية حية يصوّر فيها الشاعر ألمه، ولوعته، وحزنه الشديد على فراق المحبوبة، فيحسّ فيها المتلقي بنبضات قلب الشاعر، ولواعج شوقه، وحنينه، ولوعته وهو يشاهد المحبوبة ترتحل مع قبيلتها نحو ديار بعيدة، وهنا تظهر براعة الشاعر التصويرية، وقوة مخيلته، وقدرته على نقل انفعالاته، وتجربته الشعورية الوجدانية وفق ما يقتضيه الموقف، ووظف الشعراء من أجل نقل صورة مشهد ارتحال الطعائن بأبعاده النفسية، والوجدانية العديد من الأساليب الفنية، والإنشائية، منها: الوصف، والحوار، والسرد القصصي، والاستفهام، والنداء.

كان الشاعر يحرص كلّ الحرص على توفير سبل الراحة والأمان لها، فاخترع الهودج الذي يوضع على الإبل، وتوضع المرأة فيه، وأطلق عليه طعينة، وأطلق على النساء اللواتي يُحملن في الهودج طعائن.⁽⁷⁾ فالعلاقة متلازمة بين المرأة البدوية، والهودج، فكلاهما يسعى طعينة، وهي من باب المجاز المرسل أي تسمية الشيء بما يجاوره، وهذه التسمية تدلّ على ترسخ سلوك الترحال في الثقافة البدوية، حتى قيل لزوجة الرجل طعينته.

والهودج مخمل يوضع على ظهر الحيوانات، وخاصة الجمال، والإبل مصنوع من الخشب، ويشبه السرير، يحتوي على أعمدة، تُنصب عليها ستائر من قماش، فيصبح شكله كالخيمة الصغيرة، تجلس فيه المرأة؛ لتتقي به حرارة الشمس أو الرياح الصحراوية المحملة بالأتربة، والغبار، وغالباً ما يكون مظللاً بالقماش، وأحياناً يكون مغلقاً مغطى بالكامل، وكان منتشرًا في أوساط البدو الجاهليين، وأطلق عليه أيضاً الغبيط، كما في قول امرئ القيس يصوّر مغامرته الغرامية مع محبوبته "عنيزة"⁽⁸⁾ [الطويل]

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَدْرَ خَدْرَ عَنِيْزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيْطُ بِنَا مَعًا عَقَرْتَ بَعِيْرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا سَبِيْرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِيْنِي مِنْ جَنَّاكِ الْمَعْلِلِ

يلاحظ براعة الشاعر في نقل مشهد الحوار الذي دار بينه وبين عنيزة في الهودج إلى المتلقي، وتصويره، فينقل لنا صوت عنيزة وهي تلومه لدخوله الهودج عليها، وخشيتها من أن تصبح تمثلي راجلة بسبب عقر ظهر البعير الذي يحمل الهودج الذي أخذ يميل، ويترنّج،

فطلبت منه النزول، لكنّه أبى إلّا أن يقضي وطره منها، وطلب منها مواصلة السير، وأن ترخي زمام البعير.

وجاء تصميم الهودج ليوَقّر للمرأة البدويّة الشعور بالأمان، ويحميها من عوامل الطقس الصحراويّ القاسيّ مثل: حرارة الشمس الحارقة في النهار، والبرد الشديد في الليل، والرياح الشديدة المحمّلة بالغبار، إضافة إلى أنّه يصونها من نظرات عيون الناس الأجانب عنها، فشكّل الهودج «صُنْع أساسًا لتحقيق الستّر للمرأة أثناء ركوبها على البعير، ومراعاة الأعراف البدويّة، ومنها قلق الغيرة، والحرص على الشرف لدى الرجل، ونفور الرجل من التعرّض لامرأته بوصفٍ أو كلام». ⁽⁹⁾ ويوضع ستر رقيق فوق الهودج مبالغته في صيانة المرأة عن عيون الرجال الغرباء، يقول الأعشى مصوّرًا حال محبوبته هريرة: ⁽¹⁰⁾ [البسيط]

لم تمش ميلًا ولم تركب على جمليّ ولم ترالشمس إلّا دوّنها الكِلل

ومعنى البيت أنّه ليس من عادتها السير أو الركوب على ظهر الجمال، وهذا يدلّ على حرص ذويها على توفير أسباب الراحة لها، وهذه المرأة أيضًا مختبئة في بيتها، ومحتجبة عن مخالطة الرجال الغرباء، لا تنظر إلى الشمس إلّا فوقها الكِلل: جمع كلّ، وهو غطاء رقيق يُوضع فوق الهودج، يحجب المرأة عن الناس الغرباء، وهذا التصميم المحكم للهودج كانت وراءه «أيدي صنّاع وعقول مبدعة، وكانت الغاية من إنشائها، ثم تصويرها هي رفاهية المسافر، حتّى لا يشقّ عليه سفره». ⁽¹¹⁾ وكانت ستائره تُزيّن أحيانًا بريش النعام الأسود بغية بيان منزلة أصحابه وترفعهم، وكانت الهودج أحيانًا تُزيّن بألوان زاهية للدلالة، من ذلك قول الأعشى: ⁽¹²⁾ [الطويل]

علّون بأنماطٍ عتاقٍ وعَقْمَةٍ جوانبها لونانٍ وردٌ ومُشربٌ

يصف الأعشى منظر الهودج، وهي تسير في الصحراء، وقد ازدانت بالألوان الزاهية الوردية، واللون الورديّ يرمز إلى أنوثة المرأة وجاذبيتها الكبيرة. من هنا، كانت المرأة البدويّة ركنًا أساسيًا من أركان المجتمع البدويّ الجاهليّ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّها كانت محور الشعر الجاهليّ سواءً بصورة جليّة مباشرة في غرض الغزل أم بصورة رمزيّة كما في المقدمة الطليّة، ورحلة الطعائن.

2/ القيم البدويّة

كان المجتمع البدويّ الجاهليّ يعيش حالة صراع بين صفات إيجابية محمودة، تجسّد الخير، وصفات سلبية مذمومة، تجسّد الشرّ، وقد تقاسمت شخصيّة البدويّ الجاهليّ قيم الخير، والشرّ، وصوّر الشعراء الصراع بين هذه القيم.

1/2 القيم الإيجابية

تحلّى البدو الجاهليّون بمجموعة من القيم الخُلقيّة التي، استلهمها الشعراء في صورههم، أبرزها:

* الكرم

كان الكرم قيمة خُلقيّة متأصّلة في نفس الرجل البدويّ الجاهليّ على الرغم من موارد البيئة الصحراويّة الشحيحة، فشعورهم بطبيعة البادية القاسية غدّى في نفوسهم روح التضامن والإخاء، فولدت قيمة الكرم التي كانوا من أكثر الخصال التي يتفاخرون بها. فهذا عنتره يفخر في معلّقته بشمائله، ومنها الكرم، فيقول: ⁽¹³⁾ [الكامل]

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرْلَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرُمِي

فهو لا ينفق ماله كلّ على شرب الخمر، بل عندما يصحو لا يقصّر عن الجود بماله لمن يحتاجه. وأمّا امرؤ القيس، فعلى الرغم ممّا في شعره من فحش، يجعل مكارم الأخلاق، وفي مقدمتها الكرم مبلغ همّته في الحياة، وغاية كسبه، فقال: ⁽¹⁴⁾ [الوافر]

وَكُلُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صَارَتْ إِلَيْهِ هِمَّتِي، وَبِهِ اكْتِسَابِي

وحتى في مغامراته النسائيّة يصوّر جوده، وكرمه، فقال يصف يوم دارة جلجل: ⁽¹⁵⁾ [الطويل]

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيطِي فَبَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمِّلِ
فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدِّمْقَسِ الْمُفْتَلِ

فقد نحر لهمّ ناقته المكتنزة باللحم، فأخذن يأكلنّ منها، حتّى شبعن، وأصبح هو بلا راحلة تحمله، فركب في هودج عنيزة.

وكان الشعراء الجاهليّون يقدّرون قيمة الكرم، ويثنون على المتخلّقين بها، سواء كانوا من زعامات المجتمع البدويّ، وأعيانه أم من العامّة، وقد ذهب الأعشى من عنده قصد سوق عكاظ، وكان ذلك في موسم الحجّ، فوقف ينشد قصيدته الشهيرة التي يثني فيها على كرم المُحلّق، وجوده: ⁽¹⁶⁾، ومنها هذه الأبيات: ⁽¹⁷⁾ [الطويل]

يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفُّ مُفِيدَةٌ وَأُخْرَى إِذَا مَا ضُنُّ بِالزَادِ تُنْفِقُ

تَرَى الْجُودَ يَجْرِي ظَاهِرًا فَوْقَ وَجْهِهِ كَمَا زَانَ مَتَنَ الْهِنْدُوَانِي رَوْنُقُ

يشيد الأعشى في هذه القصيدة بكرم المخلّق، على الرغم من قلة ذات يده، ويتفنن في تصوير كرمه، فيصوّر بشاشة وجهه في استقبال ضيفه، ويثني على حسن إيقاد النار، وهدوئها، ويقرن بين وبين الكرم، ولمّا سمع الناس هذه القصيدة من فم الأعشى تسابقوا إلى بيت المخلّق قاصدين الزواج ببناته، فتزوجن كلّهنّ، فقصّة الأعشى مع المخلّق توضّح قيمة الكرم في العصر الجاهليّ، والمكانة المرموقة للشعراء في قلوب الناس، ووجدانهم. وكان الكرم من أهمّ الخصال التي يمدح بها الشعراء البدو الجاهليّون الأعيان، والملوك، من نماذج ذلك، اللوحة التصويريّة الجميلة التي يرسمها النابغة¹⁸ لكرم النعمان وسخائه: (19) [البسيط]

فَمَا الْفُرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ تَرْمِي أَوَاذِيَهُ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَجِّحٍ لِحَبِّ فِيهِ رِكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَأُ مُعْتَصِمًا بِالْخَيْرِ زَانَةً بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيَبَ نَافِلَةً وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ

تفتّن النابغة في وصف كرم النعمان، ورصد لذلك مجموعة من الصور الفخمة المضخّمة التي تعتمد على أسلوب التشبيه الدائري الاستطراديّ، فمهر الفرات عندما يبلغ ذروة فيضانه، وتضطرب أمواجه، ليس بأجود من النعمان الذي عطاؤه دائم غير منقطع، أمّا نهر الفرات ففيضانه في موسم الأمطار، وذوبان الثلوج فقط.

*العقّة

لعلّ النظرة التي علقت بالمجتمع العربيّ البدويّ في الجاهليّة، أنّه كان مجتمعًا متفسّخًا أخلاقيًا تستباح فيه الحرّمات، وهذه النظرة غير دقيقة، إذ كان يحثّ على مكارم الأخلاق، ويعاقب كلّ من يتمرّد على أعراف المجتمع الأخلاقيّة، وينتهك الحرّمات بالنفي أو الطرد من القبيلة. تفرّد عنتره عن أقرانه من الشعراء الجاهليين بصفة العقّة، وهي منع النفس عن كلّ شيء إلها، إضافةً إلى ما تمتع به من جرأة، وشجاعة، وفروسيّة، وقد صوّر ذلك في شعره، من ذلك قوله مخاطبًا عبلة: (20) [الكامل]

هَلَا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
إِذَا لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالِي سَابِحٍ نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمِ
طَوْرًا يُجَرِّدُ لِلطِّعَانِ وَتَارَةً يَأْوِي إِلَى حَصَدِ الْقَسْبِيِّ عَرَمَرَمِ
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

أراد عنترة لفت نظر عبلة إلى خصاله التي يتفرد بها عن باقي رجال عشيرته، وأبرزها العفة، فهو إذ يبلي البلاء الحسن في الحرب، ليس طمعاً في الغنيمة، وإنما دفاعاً عن شرف قبيلته. وهو يفضل أن ينام عاصب البطن من الجوع على أن يذلّ كرامته في سبيل لقمة العيش، فيقول: ⁽²¹⁾ [الكامل]

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكلي

وهو لا يرضى أن يقيم علاقة مع امرأة خارج نطاق الحياة الزوجية، ويؤثر العفة، والحشمة، والحياء، ويصون حرمة الجار، ولا يتتبع عورات النساء، يقول: ⁽²²⁾ [الكامل]

ما استمتُ أنثى نفسُها في موطنٍ حتى أوفِّي مهرها مولاها
أغشى فتاة الحَيِّ عندَ حليلها وإذا غزا في الجيش لا أعشاها
وأغضُ طرفي ما بدت لي جارتِي حتى يُواري جازتي مأواها

فهو يحفظ جاره في أهله، ولا يستغلّ غيابه في الغزو، ليخونه، وإذا رأى جارته فإنّه يغضّ بصره حتى تدخل بيتها، وهو يكبح جماح شهوات نفسه، ويروضها على العفة، والأخلاق السمحة. ويوصي الأعشى ابنه بالمحافظة على عرض جاره، فلا يهتك ستره، فقال: ⁽²³⁾ [الطويل]

ولا تقرّبن جارةً إن سرّها عليك حرامٌ فأنكحن أو تأبدا
* الجراءة والشجاعة

كانت الجراءة والشجاعة في اقتحام الأهوال من أبرز المآثر التي يفتخر بها البدو الجاهليون، وكانوا يعدّون ذلك من أخلاق الفرسان، فيجازفون في ركوب المخاطر، ولو كلّفهم الأمر حياتهم، ولا يرضون الذلّ والهوان، قال عنترة: ⁽²⁴⁾ [الكامل]

وإذا الجبانُ نهاك يومَ كريمةٍ خوفاً عليك من ازدحامِ الجَحْفَلِ
فإعصِ مقاتلته ولا تحفل بها وإقدام إذا حقّ اللقا في الأوّل
واختر لنفسك منزلاً تعلو به أو مت كريمةً تحت ظلّ القسطلِ
فالموت لا ينجيك من آفاته حصنٌ ولو شيدته بالجندلِ

يفضلّ عنترة الموت الكريم في ساحات المعارك على الحياة الذليلة، مادام أنّ الموت أمرٌ محتّمٌ لا مفرّ منه، ولا مهرب، ولو كان الإنسان في بروج محصنة. وأمّا امرؤ القيس، فيرفض أن يقنع بالعيش المتواضع، وإنما يوطن نفسه على الإقدام سعياً وراء المجد، فيقول: ⁽²⁵⁾ [الطويل]

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤْتَلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُ أَمْثَالِي

ومدح النابغة "عصام بن شهير" حاجب النعمان بن المنذر، لعلو همته، وجراته، وإقدامه، واعتماده على نفسه، فتحول من مجرد حاجب صغير إلى رجل ذي مكانة عالية ومال وفير في قصور المناذرة، فقال: ⁽²⁶⁾ [الرجز]

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلِمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِفْدَامًا
وَصَبَرَتْهُ مَلِكًا هَمَامًا حَتَّى عَلَا وَجَاوَزَ الْأَقْوَامَا

وصار عصام مضرب المثل لمن يحوز المجد بجده واكتسابه، وليس بسبب نسبه، و«النَّاسُ يَقُولُونَ لِمَنْ يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ عِصَامِي، وَلِمَنْ يَفْتَخِرُ بِأَبَائِهِ عِظَامِي». ⁽²⁷⁾

2/2- القيم السلبية

بالإضافة إلى القيم البدوية الخلقية الإيجابية كان ثمة قيم خلقية مذمومة ألحقت الضرر بالمجتمع البدوي الجاهلي، وأبرز هذه القيم:

*- الثأر

كان الثأر عادة متأصلة في نفوس البدو الجاهليين، فإذا قُتل أحد أبناء القبيلة كان لزاماً على باقي أفراد القبيلة أخذ الثأر له، وإلا جَلَلُ القبيلة العار إن لم تأخذ بثأر ابنها، أو قبلت الدية بدلاً من الاقتصاص من القاتل، ولذلك جاء في الأمثال: "أضيع من دم سلاخ". وسلاخ رجل من عبد القيس قُتل، فطلّ دمه. ⁽²⁸⁾ ، أي ضاع دمه هدرًا، ولقد كان الثأر سبباً في اشتعال الحروب، والنزاعات بين القبائل البدوية في العصر الجاهلي. فامرؤ القيس قد هجر حياته اللاهية العابثة عندما جاءه خبر قتل والده حُجر، وعزم على الثأر له، وقال: ضيعني صغيرًا، وحمّلي دمه كبيرًا، وحلف ألا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، ولا يقرب النساء حتى يدرك ثأر أبيه، فقال بعد أن أدرك ثأره من بني أسد: ⁽²⁹⁾ [السرّيع]

قُولَا لِدُودَانَ عَيْبِدِ الْعَصَا مَا غَرَكُمُ بِالْأَسَدِ الْبَاسِلِ
حَلَّتْ لِي الْخَمَرُ وَكُنْتُ أَمْرًا عَنْ شَرِّهَا فِي شَغْلٍ شَاغِلِ
فَالْيَوْمَ أَسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ

لم يكن امرؤ القيس أكبر أبناء أبيه، ولكنه هو الذي أخذ على عاتقه مهمة الثأر له؛ لأنه لم يجزع، ولم يبك عندما جاءه خبر وفاته، وقد حاول بنو أسد استرضاء امرئ القيس بعد قتلهم أباه، فلم يرض ذلك، وعزم على حربهم، وفي البيت الأول يذكر عشيرة (دودان) التي

قتلت أباه، وهي فرع من قبيلة بني أسد، فحاربها، وانتصر عليها انتصارًا مؤزرًا، وأثنى في أهلها الجراح، حتى فاحت رائحة جثث القتلى، وقرت عينا امرئ القيس بالنصر، وراح يشرب الخمر بعد أن حلف ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه من بني أسد. ومن النماذج على الثأر قول عنترة: (30) [الخفيف]

قَسَمًا بِالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا وَتَوَلَّى الْأَرْوَاحَ وَالْأَجْسَامَا
لَا رَفَعْتُ الْحُسَامَ فِي الْحَرْبِ حَتَّى أَتْرُكُ الْقَوْمَ فِي الْفِيَا فِي عِظَامَا

فهذان البيتان من قصيدة قالها عنترة في رثاء زهير بن جذيمة العبسي (31) شيخ قبيلة عبس، التي ينتسب إليها عنترة الذي يتوعد بالثأر له من بني عامر الذين قتلوه، وكان زهير فارسًا وسيدًا مطاعًا في قومه.

*- التمييز على أساس اللون

كان التمييز العنصري على أساس لون البشرة متفشياً في المجتمع البدوي الجاهلي، الذي كان ينقص من حقوق ذوي البشرة السوداء، ويعاملهم معاملة العبيد، حتى سبب ذلك عقدة نفسية لهم، وأكثر من عانى من هذا التمييز عنترة، فقد ورث السواد عن أمه سمية التي كانت تسمى بـ"زبيبة"، تحقيراً من شأنها، وعومل عنترة على أنه عبد، وعندما أحب ابنة عمه "عبله" رفضوا تزويجه إياها بسبب لون بشرته، وكان على عنترة أن يتجاوز عقدة اللون، فعندما وقعت الحرب بين عبس وذبيان أبلى عنترة بلاء حسناً، واستطاع أن ينال حريته بسبب فروسيته، وشجاعته، فمنحته قبيلته حريته من منطلق نفعي، وليس اعترافاً بخطئهم في معاملته، وعلى الرغم من استماتة عنترة في الدفاع عن قبيلته، فقد ظلوا يعيرونه بلون بشرته، وقد صور ذلك في قوله: (32) [الطويل]

إِذَا فَاضَ دَمْعِي وَاسْتَهَلَ عَلَى حَدِّي وَجَادَبَنِي شَوْقِي إِلَى الْعَلَمِ السَّعْدِي
أَذْكُرُ قَوْمِي ظَلَمَهُمْ لِي وَبَغِمَهُمْ. وَقَلَّةَ إِنْصَافِي عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
بَنَيْتُ لَهُمْ بِالسَّيْفِ مَجْدًا مُشِيدًا فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُمْ هَدَمُوا مَجْدِي
يَعِيبُونَ لَوْنِي بِالسَّوَادِ وَإِنَّمَا فِعَالُهُمْ بِالْخُبْتِ أَسْوَدُ مِنْ جِلْدِي

يبوح عنترة في بداية القصيدة بما يستكن في نفسه من ألم دفين بسبب نظرة قومه الدونية له بسبب لونه، على الرغم من بسالته في الدفاع عن قبيلته، حينما احتاجه قومه في الحرب، إلا أنهم قابلوا صنيعه بالجحود، والإساءة، وبخسوه حقّه، وأمعنوا في الحطّ من قدره، فتجيش مشاعر الأسى والشعور بالظلم في صدره، ولا يستطيع- وهو الفارس الشجاع- أن

يمنع دموعه من الانهمار على خديّه، ثمّ يتمالك عنتره نفسه، ويعود لصلابته، فيعاتب قومه لعلّ ذلك يحرك وجدانهم، فيرقّون له، ويذكّرهم بمجهوداته في الدفاع عنهم وحمايتهم لشرف قبيلتهم وأعراضهم، وبسالته في قتال أعدائهم، فصنع مجدّاً لهم، إلّا أنّهم بالمقابل هدموا مجده، وأمعنوا في تعييره بسواد بشرته، وفي الواقع، إنّ فساد طويتهم، وقبح صنيعهم أشدّ سواداً من لون بشرة عنتره؛ لأنّ سواد بشرة عنتره لا ذنب له فيه، أمّا سواد قلوب أبناء قومه فناتج عن سوء فعالهم وفساد أخلاقهم، ويصرّح بأنّه لا يأبه للطرْد؛ لأنّ المتضرّر هم قومه الذين طردوه، فقد صنع لهم عزّاً.

* خلاصة:

مثّل الشعراء الجاهليون بيئتهم البدوية أصدق تمثيل، وتشبّعوا قيمها، وأعرافها، فجاءت صورهم الشعرية غير ملفّقة أو منتحلة استقوها من واقعهم، ومحيطهم الاجتماعيّ والثقافيّ، انعكست فيها عادات البداوة، وتقاليدها، وأنساقها الثقافية، فهم لا يلفّقونها أو ينتحلونها، بل تأثروا في صياغتها بأنماط الحياة البدوية الاجتماعية، والثقافية، والمعيشية، وتشبّع الشعراء الجاهليون بمنظومة قيم المجتمع البدويّ الجاهليّ، فأبرزوها في صورهم، وهذه القيم منها ما هو إيجابيّ محمود كالكرم، والعفة، والفروسيّة، ومنها ما هو سلبيّ مذموم كالثأر، والتمييز على أساس اللون.

* نتائج البحث

1- رحلة الطعائن كفضاء شعري متعدد الأبعاد

أظهرت الدراسة أن رحلة الطعائن في الشعر الجاهلي ليست مجرد انتقال مادي للبحث عن الماء والكلاء، بل تمثل فضاء شعرياً وثقافياً متشابكاً يجمع بين السرد والوصف والبعد النفسي، ويعكس التجربة الفردية للشاعر في إطار النسق الثقافي العام للمجتمع البدوي. فالرحلة تشكل عنصراً محورياً في بنية القصيدة، يساوي في أهميته المقدمة الطللية من حيث الوظيفة الفنية والتعبيرية.

2- تجسيد القيم البدوية في الصور الشعرية

تبين أن صور الهودج والطعائن كانت رموزاً ثقافية تحمل دلالات اجتماعية وأخلاقية، مثل الشرف والستر وحماية المرأة، كما عكست العلاقات بين الرجل والمرأة والقبائل، وتوضّح

حرص المجتمع البدوي على القيم الأخلاقية مثل الكرم، العفة، والشجاعة، التي جسدها الشعراء في شخصياتهم ومواقفهم، مما يضيف بعداً جمالياً وأخلاقياً للرحلة الشعرية.

3- القيم الإيجابية في المجتمع البدوي الجاهلي

حدد البحث أن القيم الممدوحة كانت محوراً رئيسياً في الصور الشعرية، وأبرزها:

3-1- الكرم : مثلما ظهر في شعر عنتره وامرئ القيس والأعشى، حيث يُصورُ الجود سواء على الضيوف أو في مواقف المغامرة.

3-2 العفة والحشمة: والتي تميزت بها شخصية عنتره وحفظها لحرمة الآخرين وحقوق المرأة، بما يعكس الانضباط الأخلاقي للمجتمع البدوي.

3-3 الشجاعة والجرأة: مثل مواجهة المخاطر في المعارك والسعي وراء المجد الشخصي والقبلي، والتي كانت جزءاً من أخلاق الفرسان في البيئة الصحراوية.

4- القيم السلبية والصراعات الاجتماعية

تناول البحث أيضاً القيم المذمومة التي أظهرتها البيئة البدوية، مثل:

4-1 الثأر: الذي كان سبباً للصراعات الطويلة بين القبائل، مثل موقف امرئ القيس بعد مقتل والده.

4-2 التمييز على أساس اللون: كما واجه عنتره بن شداد نتيجة لون بشرته، الأمر الذي عكس صعوبات اجتماعية وأزمة نفسية فردية، وأوضح كيف يمكن للشاعر أن يحوّل المعاناة إلى رمز شعري يعبر عن شجاعة وبسالة الفرد.

5- الشعر الجاهلي كمرآة للبيئة والمجتمع

أكد البحث أن الشعراء الجاهليين جسّدوا بيئتهم الصحراوية وأسلوب حياة البدو بكل تفاصيله، فتجلت عادات البداوة وتقاليدها وأنساقها الثقافية في الصور الشعرية، وهو ما جعل الشعر الجاهلي صادقاً وممثلاً للواقع الاجتماعي والثقافي، بعيداً عن الاختلاق أو الانتحال، مع قدرة النصوص الشعرية على نقل العاطفة والتجربة الإنسانية ضمن السياق البدوي.

5- وظيفة الرحلة في إثراء بنية القصيدة

أوضح البحث أن رحلة الضلعائن توسع من مدارك الشاعر وقدرته على التخيل، وتتيح استخدام أساليب فنية متعددة مثل الوصف والحوار والسرد والاستفهام، بما يجعلها غرضاً

شعرياً متكاملأ يساهم في إضفاء الحركة والجمالية والعمق النفسي على القصيدة، كما يربط بين التجربة الفردية للشاعر والقيم الثقافية للمجتمع.

*خاتمة

خلص هذا البحث إلى أن رحلة الظعائن في الشعر الجاهلي تمثل فضاءً شعرياً متعدد الأبعاد يجمع بين الواقع الاجتماعي والبعد النفسي والتجربة الفردية للشاعر ضمن النسق الثقافي العام للمجتمع البدوي. فقد تبين أن الرحلة ليست مجرد انتقال مادي بحثاً عن الماء والكأ، بل طقس شعري متكامل يشمل السرد والوصف والحوار والتصوير النفسي، ليصبح عنصراً محورياً في بنية القصيدة إلى جانب المقدمة الطللية.

وأظهرت الدراسة أن الشعراء الجاهليين استلهموا من بيئتهم الصحراوية وعادات البدو وتقاليدهم منظومة قيم أخلاقية تتجلى في الصور الشعرية، أبرزها الكرم، العفة، والشجاعة، والتي جسدت المثل العليا للفرد والقبيلة. في المقابل، رصد البحث القيم المذمومة مثل الثأر والتمييز على أساس اللون، والتي أظهرت الصراعات الاجتماعية والتحديات النفسية التي واجهها الأفراد، وخاصة في شخصية عنترة بن شداد، مما أضفى على النصوص الشعرية عمقاً إنسانياً ورمزاً ثقافياً.

كما بين البحث أن رحلة الظعائن، من خلال تصوير الهودج والنساء المرتحلات، تجسد القيم البدوية المتعلقة بالشرف والستر وحماية المرأة، وتعكس حسن المجتمع تجاه الراحة والأمان والكرامة. هذا الربط بين التجربة الفردية والشعرية من جهة والقيم الثقافية والاجتماعية من جهة أخرى، يجعل الشعر الجاهلي مرآة صادقة للبيئة التي أنتجته، ويكشف عن قدرة الشاعر على تحويل تجربة الرحلة إلى لوحة شعرية غنية بالحركة والجمالية والرمزية.

في الختام، يمكن القول إن رحلة الظعائن لم تكن مجرد موضوع شعري عابر، بل عنصر أساسي في بنية القصيدة الجاهلية، يوفر رؤية شاملة للبيئة البدوية، وينقل القيم الأخلاقية والثقافية، ويعكس صراعات الإنسان البدوي بين الواجب الاجتماعي والطموح الشخصي، ليظل الشعر الجاهلي شاهداً حياً على الحياة البدوية وصورة حقيقية لمجتمعها وثقافته.

*الهوامش والإحالات:

¹ - تنظر ترجمته في: [الجمعي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ١٥٢] و [ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٣٤٣] و [الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مؤسسة بدران للنشر، القاهرة، ج 8، ص 368] و [القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، تح علي البجادي، دار نهضة مصر، القاهرة، صفحة ٣٤٧]، و [الشنتمري، الأعلام، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص ٧٦] و [بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 14-16]

² امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (130-؟85 ق.م/497-؟540 م). شاعر عربي جاهلي. من أصحاب المعلقات. ولد بنجد ونشأ فيها في كنف أبيه وكان ملكا على بني أسد. تنصرف في صدر شبابه إلى اللهو والصيد، حتى إذا قتل بنو اسد أباه التمس من قبائل العرب العون على الثأر، فلم يستجب لطلبه أحد. (البلعكي، منير، معجم أعلام المورد، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992، ص 66)

³ الأعشى: ميمون بن قيس (توفي عام 7هـ/629م). شاعر جاهلي. يعرف بالأعشى الكبير لضعف بصره. تكسب بشعره ووفد على ملوك فارس فمدحهم. ((البلعكي، منير، معجم أعلام المورد، ص 59)

- 4 - محمد، حسين علي، ط7، 2011م، التحرير الأدبي، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ص 250.
- 5 - السيف، عمر عبد العزيز، 2009 م، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية : الأسطورة والرمز، دار الانتشار العربي، بيروت، ص 161-162.
- 6 - شبانه، حاتم عبد السلام، 2023 م، الرحلة والراحلة في الشعر العربي القديم، شعراء المعلقات أنموذجا، مندار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ص 22.
- 7 - جاء في لسان العرب: «الظَّعِينَةُ: الْهُودُجُ تَكُونُ فِيهِ الْمَرَأَةُ، وَقِيلَ: هُوَ الْهُودُجُ، كَانَتْ فِيهِ أَوْ لَمْ تَكُنْ. الظَّعِينَةُ: الْمَرَأَةُ فِي الْهُودُجِ، سُمِّيَتْ بِهِ عَلَى حَدِّ تَسْمِيَةِ النَّبِيِّ بِاسْمِ النَّبِيِّ لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ الْمَرَأَةُ ظَّعِينَةً لِأَنَّهَا تَطْعَنُ مَعَ زَوْجِهَا وَتُقِيمُ بِإِقَامَتِهِ كَالْجَلِيسَةِ، وَلَا تُسَمَّى ظَّعِينَةً إِلَّا وَهِيَ فِي هُودُجٍ.» ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 271).
- 8 - امرؤ القيس، الديوان، ص 29.
- 9 - حجازي، دُرّة عبد الحميد، الظعينة في شعر العصر الجاهلي، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، مصر، ع 31، أبريل 2016، ص 1075.
- 10 - الأعشى، الديوان، ص 57.

- 11 - مرتاض، عبد المالك، 1988 م، السبع معلقات، مقارنة سيميائية أنثربولوجية لنصوصها، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية، ص323.
- 12 - الأعشى، الديوان، ص201.
- 13 - عنتره، الديوان، ص82.
- 14 - امرؤ القيس، الديوان، ص٧٨.
- 15 - المصدر نفسه، ص26-27.
- 16 - وذكر ابن عبد ربّه الأندلسي (ت، ٣٢٨هـ) في " العقد الفريد" رواية أخزى لسبب مدح الأعشى للمحلّق، فذكر أنّ الأعشى طرقه في فتية وقد كان المحلّق بن حنتم بن شدّاد خاملاً لا يذكر، حتّى طرقه الأعشى في فتية، وليس عنده إلا ناقة، فأتى أمّه فقال: إنّ فتية طرقونا الليلة. فإن رأيت أن تأذني في نحر الناقة! قالت: نعم يا بني. فنجرها واشترى لهم ببعض لحمها شرباً، وشوى لهم بعض لحمها، فأصبح الأعشى ومن معه غادين، فلم يشعر المحلّق حتّى أتته القصيدة. (ابن عبد ربّه الأندلسي، شهاب الدين أحمد، ط١، ١٤٠٤هـ، العقد الفريد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج٦، ص١٧٧)
- 17 - الأعشى، الديوان، ص217-224-225.
- 18 النابغة الذبياني (توفي عام 18 ق.هـ/604م) شاعر جاهلي، من أصحاب المعلقات. عرف بدقّة الوصف وبراعة الاعتذار. عاش فترة فترة في بلاط اللخميّين في الحيرة حيث لقي حظوة أثارت حسد خصومه فأوغروا عليه صدر الملك النعمان الثالث واهمّوه بحبّ المتجرّدة امرأة الملك. فلجأ إلى بلاط الغساسنة أعداء اللخميّين وراح يعتذر إلى النعمان معلّناً براءته ". (العلبيكي، منير، معجم أعلام المورد، ص200)
- 19 - النابغة، د.ت، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
- 20 - عنتره، الديوان، ص82.
- 21 - المصدر نفسه، ص68.
- 22 - عنتره، الديوان، ص93.
- 23 - الأعشى، الديوان، ص137.
- 24 - عنتره، الديوان، ص٧٠.
- 25 - امرؤ القيس، الديوان، ص١٣٩.
- 26 - النابغة، الديوان، ص114.
- 27 - العسكريّ، أبو هلال، د.ت، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص٣١٢.
- 28 - المصدر نفسه، ج٢، ص١٠.
- 29 - امرؤ القيس، الديوان، ص١٤١.
- 30 - عنتره، الديوان، ص79-78.

³¹ - زُهَيْرُ الْعَبْسِي (000 - نحو 50 ق هـ = 000 - نحو 574 م): زهير بن جذيمة بن روانحة العبسي: أمير عبس، وأحد سادات العرب المعدودين في الجاهلية، كانت قبيلة هوازن تهاجه، وتحمل إليه الإتاوة في كل عام تأتيه بها في عكاظ، قتله خالد بن جعفر العامري، ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص11) و(النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب، 1423 هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج3، ص53).

³² - عنتر، الديوان، ص31-32.

المصادر والمراجع:

- ابن شداد، عنتر، 1893م، الديوان، مطبعة الآداب، بيروت.
- الأعشى، ميمون بن قيس، 1974م، الديوان، تح: محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- امرؤ القيس، ط4، ديوان امرؤ القيس، شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت.
- حجازي، دُرَيَّة عبد الحميد، الطعينة في شعر العصر الجاهليّ، مجلّة كِلِيَّة اللغة العربية بالمنوفية، مصر، ع31، أبريل 2016.
- السيف، عمر عبد العزيز، 2009م، بنية الرحلة في القصيدة الجاهليّة: الأسطورة والرمز، دار الانتشار العربيّ، بيروت.
- شبانه، حاتم عبد السلام، 2023م، الرحلة والراحلة في الشعر العربي القديم، شعراء المعلقات أنموذجا، مندار ورد الأردنّيّة للنشر والتوزيع.
- العسكريّ، أبو هلال، د.ت، جُمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت.
- محمد، حسين علي، ط7، 2011م، التحرير الأدبيّ، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.
- مرتاض، عبد المالك، 1988م، السبع معلقات، مقارنة سيميائية أنثربولوجية لنصوصها، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية.
- النابغة، د.ت، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.